



مركز المسبار للدراسات والبحوث

Al Mesbar Studies & Research Centre

الإسلام النائم التصوف في بلاد الشام

الكتاب السادس و الستون – يوليو (حزيران) 2012

كتاب شهري يصدر عن مركز المسبار للدراسات والبحوث

الجماعات الصوفية والإسلامية الأنماط الجديدة للتدين في سوريا

عبد الغني عماد(*)

يحظى التدين الشعبي وموضوع التصوف وعلماءه في سورية باهتمام متميز، فهو تيار عميق الجذور وله شعبية كبيرة مستمدة من تقاليد وتاريخ عريق، ورموزه لها قدر كبير من التبجيل تتمتع به قديماً وحديثاً، وهو بالعموم لعب دوراً تاريخياً في مختلف المجالات وخصوصاً على صعيد التعليم الديني، وتحديداً منذ أن أحاط الحكم العثماني التصوف بالرعاية والاهتمام طيلة أربعة قرون.

(*) أكاديمي وباحث لبناني متخصص في دراسة الحركات الإسلامية.

يُلاحظ ذلك من حجم المؤلفات والكتابات في مختلف المدن والمكتبات السورية، في دمشق وحلب وحماه وحمص وإدلب ودير الزور وغيرها، حول الصوفية ومواضيعها، ويمكن ملاحظة ذلك من انتشار الأضرحة ومدى تعلق بعض الناس بها. ويكفي الإطالة على فهرس المكتبة الحديثة التي أنشأها النظام السوري باسم «مكتبة الأسد الوطنية» في دمشق ليجد فيها حوالي 1500 كتاب مطبوع و400 كتاب مخطوط عن التصوف تاريخاً وسلوكاً وفكراً وتراجماً لأبرز أعلامه.

منذ الثمانينيات من القرن المنصرم ازداد الاهتمام بالتصوف وأهله، وحظي برعاية حكومية ملحوظة، فضلاً الحضانة التي حظي بها نوع آخر من التدين الشعبي التعليمي الذي يسعى إلى نشر التدين الشعبي الصامت بعيداً عن السياسة أو ميول العمل الجماعي العام. والواقع إن البحث في ظاهرة هذا النوع من التدين في سورية يدخل مباشرة في رسم ملامح الخريطة السياسية للجماعات والتيارات النافذة في أوساط التدين الشعبي الرائج تحت سقف النظام والذي نما بوضوح منذ بداية التسعينات، ثم عاد ليطفو على السطح مع الألفية الجديدة بداية عهد الرئيس بشار الأسد.

لا يمكن رسم ملامح التدين الشعبي السوري المعاصر دون الإطالة السريعة على الظروف السياسية والبيئية الحاضرة له؛ ذلك إن النظام السوري في صراعه مع الإخوان المسلمين أطاح بكل أشكال العمل الحركي للإسلام السياسي، وعمل على تشتيته وتجفيف منابعه، ومطاردة كوادره، وكانت مجزرة حماه وما تلاها السنة (1982) تمثل ذروة نهج الاجتثاث الذي اتبعه تجاه هذا التيار، الأمر الذي ترك الساحة الإسلامية فارغة، ورسم بالتالي حدود وسقف العمل الإسلامي المسموح به ضمن إطار ما يمكن أن نسميه تديناً شعبياً - صوفياً صامتاً، تعليمي الطابع، تقوي ووعظي من جهة وقريب من السلطة أو مهادن لها أو أحد صنائعها من جهة أخرى.

أبرز هذه الجماعات اليوم في سورية تتمثل بجماعة أبو النور (الكفتاريون)، والتيار الأشعري الذي يمثله الدكتور سعيد رمضان البوطي، والجماعة النسوية البارزة والناشطة والمعروفة باسم (القبسيات)، بل وحتى الأحباش بكيفية ما (من حيث علاقتها الوطيدة بالنظام ودورها المميز وخاصة في لبنان في فترة الوجود السوري)، والواقع إن

هذه القيادات وغيرها، تجاوز تأثيرها الحدود السورية، بل إن بعضها أصبح له فروع في عواصم عربية ودولية عديدة، وأصبح له منهجية متميزة في الدعوة والتنظيم وبعض الاجتهادات العقائدية. واللافت وسط هذا النشاط أن التيار السلفي الذي كان قد شهد صعوداً بداية الاستقلال، وكان الشيخ عبد القادر الأرنبوط ثم في ما بعد الشيخ ناصر الدين الألباني والشيخ عيد العباسي من أبرز رموزه، تعرض مبكراً إلى الحصار والتصييق الحكومي والأمني، فقد منع الشيخ الأرنبوط من الخطابة، وتم إبعاد الشيخ الألباني إلى الأردن، فضلاً عن منع تداول الكتب السلفية بشكل عام إلا فيما ندر.

الفرضية التي نذهب إليها في هذا التحليل هو إن ضمور تأثير التيار الإخواني إثر تشتيته واجتثاثه كان من شأنه إطلاق عقال السلفية بكل اتجاهاتها، ذلك إن إفراغ ساحة العمل الإسلامي وضرب الإخوان المسلمين وملاحقتهم وتجريمهم طيلة ثلاثة، بل أربعة عقود من المحنة الكبرى، كان بإمكانه أن يساهم، بشكل أو بآخر، في تسرب بعض التيارات السلفية الأكثر تشدداً، وبالتالي إفقاد المجتمع السوري الآليات التي -ربما- كان يمتلكها لإحداث قوة التوازن والعقلنة في تدينه العام، وذلك في إطار مواجهته لما يتعرض له من قبل النظام.

كان من شأن الحضور الإخواني -فيما أرى- أن يعقلن تلك الاتجاهات المتشددة، خصوصاً إذا ما وضع في إطار نظام ديمقراطي تعددي تداولي يعترف بالآخر السياسي المختلف؛ إلا أن هذا لم يحدث، ليس فقط بسبب القبضة الأمنية الحديدية، بل أيضاً بسبب اعتماد النظام منذ البداية سياسة «البدائل»، واعتباره أن البديل ليس بالمصالحة والحوار والنقد الذاتي المتبادل والانفتاح على خطاب المواطنة والديمقراطية، مقيماً نوعاً من «الخصخصة» مفسحاً المجال فيها لنوع واحد من «الإسلام» النمطي يقوم على التدين الفردي والشعبي الصامت، المتسم بالموادعة، والتصوف والزهد، وهو بالوقت نفسه تدين جدالي يثير قضايا خلافية بعضها تاريخي وبعضها كلامي لا علاقة لها بالواقع، وي طرح قضايا سجالية، يظهر فيها النظام صاحب صدر واسع لكل الاتجاهات ومرجعاً صالحاً يلوذ به المتظالمون بنفس الوقت.

كما يترك هامشاً لنمط مريح من الحراك الإسلامي. سوف تعرض الدراسة

أبرزت هذه التيارات التي سمح لها بالعمل في إطار رهانه على هذا النوع من «الإسلام» القائم على المودعة كبديل عن الاتجاهات الحركية لامتناس حيوية الحالة الإسلامية وحراكها، والتي كانت تموج بها مختلف الساحات العربية منذ مطلع الثمانينيات، وفي الواقع تحقق بعض النجاح للنظام بهذا الاتجاه، إلا أن الأمور ما لبثت أن بدأت تتقلب باتجاهات معاكسة مع ثورة الشعب السوري.

– الكفتاريون (جماعة أبو النور)

تعود في تأسيسها إلى الشيخ محمد أمين كفتارو (1875-1938)، وهو كردي الأصل ابن الملا موسى الذي نزل في سفح جبل قاسيون المطل على دمشق واستقر في حي ركن الدين قرب جامع أبي النور، وكان في ذلك الوقت مصلئاً صغيراً دفن فيه أحد المجاهدين في تحرير بيت المقدس في الحرب مع الصليبيين والمكنى باسم أبي النور. تتلمذ الشيخ محمد أمين على يد كبار مشايخ الطريقة النقشبندية⁽¹⁾ بعد أن أرشده إليه شقيقه الشيخ صالح، وبقي ملازماً للشيخ عيسى حتى وفاته (1331هـ / 1912 م)، وحصل منه على الإجازة في العلم والتربية والتزكية، وتفرغ بعدها لتأسيس دعوته في جامع أبي النور، وقام بنشاط هام على صعيد التصوف والتربية الروحية معتبراً هذا الأمر وسيلة لا غاية، وأنه أسلوب تربوي يساعد المسلم على تزكية النفس وتطهير القلب وتقوية الإرادة. لذلك كان التصوف أحد المرتكزات الأساسية في تكوين مدرسته الإسلامية⁽²⁾.

في هذه الأجواء نشأ الشيخ أحمد كفتارو (1915-2004)، متشعباً بتربية صوفية على يد والده إلى جانب كبار الطريقة النقشبندية في دمشق⁽³⁾، من أمثال الشيخ أبو الخير الميداني (ت 1911) وذلك بموازاة تلقيه للعلوم الدينية الأولية على خطا والده

(1) الشيخ عيسى الكردي الذي استقطب علماء الشام، الذي تلقى الطريقة عن الشيخ قاسم الهادي والشيخ حسن النوراني المجاز مباشرة من الشيخ خالد النقشبندي.

(2) راجع سيرة الشيخ أحمد أمين كفتارو على موقع أبو النور. انظر الرابط:

<http://www.abunour.net>

(3) الحديث عن الطريقة النقشبندية يحتاج إلى الكثير من التفصيل، إلا إنه من المهم ذكر أحد مبادئها والمتعلق بمعنى الرابطة فيها، والذي يعني أن يبدأ المرید أول توجهه إلى ذكر الله فيتصور شيخه ويجعل من تصوره هذا فاتحة ذكره لله عز وجل، حيث يوصي الشيخ مریديهم بهذا العمل على إنه ضرورة لا بد منها، ووجه ضرورته إن المرید لا يستطيع أن يستلهم ذلك إلا إذا تصور الشيخ أولاً، إذ إنه هو الذي يمكن من دخول الحضرة الإلهية ذكراً ومراقباً. وقد كان هذا المفهوم موضع اعتراض وإنكار عند بعض الصوفيين الأقل تشدداً، إلا إنه كان معمولاً به عند الكثيرين.

الذي استخلفه على رعاية أتباع الطريقة. كان طموح الشيخ أحمد قد امتد باتجاه تأسيس معهد للتعليم الديني في ذلك الحين، وذلك في سياق الرد على «صدمة الحداثة المباغثة والتي تجسدت في أسوأ صورة، في صورة الاستعمار الفرنسي آنذاك، وعند أول فرصة سنحت له، بعد أن كان مجرد مدرس ديني في دار الفتوى في القنيطرة، قام بتأسيس «معهد الأنصار الثانوي» للتعليم الديني العام 1949 استفاد من موقعه الجديد كعضو دمشق للشافعية العام 1951 ليؤسس 1952 جمعية خيرية هدفها تأمين المنح والنفقات لطلبة المعهد التابع له وتوفير الدعم للفقراء، بما يعزز الدور الاجتماعي والمؤسساتي للشيخ ويجذب إليه مزيداً من الأتباع⁽⁴⁾.

نجح الشيخ في استقطاب وسط دمشق من تجار السوق وفقراء حي الأكراد، بل امتد نشاطه إلى ريف دمشق، إلا أن المؤسسة التعليمية التي أنشأها وساعدته على توسيع دائرة أتباعه وتلاميذته، لم يكن بمقدورها بسبب مخرجاتها التعليمية المنخفضة والمحدودة بالتعليم الثانوي أن توفر له مشاريع قيادات دينية، وذلك لمعرفته بأهمية دور مثل هذه القيادات كونه كان أحد أعضاء «رابطة علماء الشام» التي تأسست العام 1946، والتي هدفت إلى بلورة تأثير اجتماعي وسياسي للعلماء حينها، ولهذا انخرطت بكيفية ما في النشاط السياسي وخاصةً الانتخابي بعد عام على تأسيسها، إلا أنها ما لبثت أن تفككت مع عقد الخمسينات تزامناً مع ازدهار الحياة السياسية وتنامي دور الأحزاب بمختلف اتجاهاتها⁽⁵⁾.

لا يوجد تفسير واضح لهذا التطور، اللافت والسريع الذي حققه الشيخ كفتارو، من مجرد مدرس ديني مغمور في مدينة ثانوية مثل القنيطرة إلى مضى لدمشق خلال أربع سنوات، والواقع إن ميول الشيخ وعلاقاته سوف تتضح أكثر بعد انتخابه مفتياً عاماً للجمهورية العام 1964 تماماً في الوقت الذي استولى فيه البعثيون على السلطة، وهذا الموقع سمح له بتعزيز البنية المؤسسية لجماعته، فأنشأ معهداً تعليمياً دينياً للإناث (معهد

(4) عبد الرحمن الحاج: الدولة والجماعة، التطلعات السياسية للجماعات الدينية في سورية (2000-2010)، مركز التواصل والأبحاث الإستراتيجية، لندن، 2011، انظر الرابط التالي:

www.strescom.org

(5) رضوان زيادة: الإسلام السياسي في سورية، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية، دبي، ط1، 2008، ص14.

بدر 1964)، ثم خطا خطوة كبيرة مع توسع الجماعة وتزايد الأتباع من خلال إقدامه على إنشاء «مجمع أبو النور» العام 1971، ليضم بعد ذلك ولأول مرة التعليم الجامعي (للكور والإناث)، وذلك مع المعهد الشرعي أولاً (1975) ثم مع كلية الدعوة الإسلامية (1985) في المجمع ذاته⁽⁶⁾. وكان هذا مؤشراً على حصول اختراق للطبقة المتوسطة والغنية من تجار السوق، أسهم فيه موقعه كمفت عام للجمهورية. وبموازاة هذا التطور الذي وفر له تمهداً غير قليل في المدارس النظامية لخريجي التعليم العالي من مؤسسته، وفر له منصبه أيضاً علاقات دولية وأتباعاً في أنحاء مختلفة من العالم، وبشكل خاص في الدول الإسلامية لآسيا الوسطى في فترة ما بعد الاتحاد السوفيتي حيث أنشأ فروعاً لمؤسسته وأفد عدداً من خريجي مؤسساته للتعليم هناك⁽⁷⁾.

مع النصف الثاني من عقد الثمانينيات المنصرمة برز أتباع الشيخ كفتارو كجماعة متميزة، في ظل الفراغ «الإسلامي الحركي» الناتج عن تصفية معالم هذا الوجود إثر الصدام الدموي مع الإخوان المسلمين آنذاك. عملت مؤسسات الشيخ ودروسه على ملء الفراغ، واستفادت من هذه الظروف إلى أبعد حد، وبلغت جماعة الشيخ عشرات الألوف عبر الخريجين من المعهد العالي الذي بدأ بشكل غير قانوني، ولكن اعتماداً على موافقة ضمنية وضوء أخضر من الرئيس نفسه، الأمر الذي وفرّ للجماعة قيادات ذات تأهيل عالٍ انتشرت في العديد من المدن السورية الرئيسية، فضلاً عن تواجدها في عدد من دول العالم وبشكل خاص في دول آسيا الوسطى الإسلامية والقوقاز وشرق أوروبا الإسلامي (ألبانيا والبوسنة).

أصبحت جماعة أبو النور أو الكفتارية جماعة دينية من الجماعات السورية المعتبرة مع بداية عقد التسعينيات، وقد تميزت هذه الجماعة على مستوى البنية الهرمية بشبكة العلاقة التقليدية ذات الطابع الشخصي المتمركز على معادلة «الشيخ والمريد»، فقد كانت جميع الخيوط تتعقد عند شخصية الشيخ، ومنه تستمد تماسكها⁽⁸⁾. وهي

(6) وصف المجمع استناداً إلى الرابط الخاص به:

<http://www.abunour.net>

(7) عبد الرحمن الحاج: الدولة والجماعة... المرجع السابق، ص29.

(8) عبد الرحمن الحاج: المرجع السابق، ص29.

حملت منذ تكوينها طموحات مؤسسيها السياسية، والتي وجدت تعبيراتها بتبادل المنافع والمصالح مع السلطة، وهي منافع وخدمات وفي غالبيتها تطلعات لم تتعد الوصول إلى مناصب رسمية عليا في الحكومة، وخاصةً تلك المتعلقة بإدارة المجال الديني وما يتصل به من تعليم وأوقاف وغيره. والواقع إن هذه البنية الهرمية المركزية حول شخصية الشيخ حملت في طياتها بعدين تركا أثراً واضحاً على أعضاء الجماعة، فالجمع بين التصوف النقشبندي الشديد والصلب مع براغماتية مغرقة، كانت من أبرز هذه خصائص هذه الجماعة وطباع الشيخ ذاته، وهو ما انعكس على مصيرها بعد وفاته لاحقاً وترك أثراً هاماً عليها، فشأنها بذلك شأن غالبية الجماعات الدينية التقليدية.

تميزت الجماعة منذ التسعينيات بتنظيم «المريدين الجدد»، تحت نظام المرشد الأقدم، ويتبع المرشدون بدورهم في الجماعة تسلسل «الأقدمية»، بغض النظر عن المؤهلات العلمية أو الدينية ولا ينافس هذا المعيار إلا معيار الولاء المطلق للجماعة مجسداً بالشيخ وتلاميذه، كالشيخ رجب ديب وعلاء الدين الزعتري وغيرهم.

نجحت جماعة أبو النور في تكوين جماعة قيادية حوله من علماء ودعاة بينهم المشايخ عمر الصباغ ونظمي الدسوقي ورمضان ديب وأحمد راجح وصالح السقا وأحمد الجزائري ومحمد خير الصباغ ومحمد عدنان الأفينوني ونذير شخاشيرو ومحمد حسن الحمصي وزيايد الدين الأيوبي والدكتور بسام الصباغ ومحمد شريف الصواف⁽⁹⁾ وغيرهم. وقد لاقى هذا الانتشار صدى واسعاً في دمشق وحلب، لكنه لم يكن بنفس المستوى في مدن أخرى مثل حمص وإدلب ودير الزور وغيرها. إلا أن الانتشار الواسع لجماعة «أبو النور» النقشبندية، وخصوصاً في حلب، لم يمنع من وجود طرق أخرى مثل الرفاعية والقادرية والكلتوية، وهذه الأخيرة أسست معهداً لمريديها في حلب أشبه بمعاهد الإعداد الحزبي والسياسي⁽¹⁰⁾ استقطب العديد من أصحاب التعليم المتدني⁽¹¹⁾.

(9) انظر أسماء العلماء المؤسسين والعاملين في المجمع على الرابط الخاص بالمجمع:

<http://www.abunour.net>

(10) الطريقة الكلتاوية الصوفية المتشددة يتزعمها الشيخ محمود الحوت، وكان قد أسسها الشيخ محمد النبهان وتتبع لها جمعية خيرية ومعهد للتعليم الشرعي يقوم على مبدأ الإقامة الداخلية. كذلك برز محمود أبو الهدى الحسيني أحد شيوخ الصوفية للطريقة الشاذلية في مدينة حلب والذي أصبح فيما بعد مديراً للأوقاف في نفس المدينة. انظر: عبد الرحمن الحاج: المرجع السابق، ص 51.

(11) علي الأمين: تحالف النظام السوري والصوفية البعثية، موقع الحوار المتمدن في 2011/7/31. انظر الرابط التالي:

انتشرت في تلك المرحلة «معاهد الأسد للقرآن الكريم في سورية»، وادعت حينها كل من جماعة أبو النور والشيخ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي إنه وراء إقناع النظام بتعميمها؛ وهي تجربة أراد النظام من خلالها تمرير رسالة يؤكد فيها عدم ابتعاده عن التدين على الرغم من علمانية الدولة من جهة، وحلقة لكي يفرغ فيها الدعاة شحناتهم الروحية والدعوية من جهة أخرى، وقد عين في منصب مدير لهذه المعاهد الدكتور محمد الحبش (مواليد 1962) العام 1989 وهو زوج حفيذة مؤسس الجماعة الشيخ أحمد كفتارو، والذي بدأ يلمع نجمه إضافة إلى الجيل الجديد في الجماعة.

إلا أن الطموحات السياسية تفجرت مع الانتخابات البرلمانية العام 2003، والتي أبدى فيها محمد الحبش⁽¹²⁾ رغبة واضحة عندما رشح نفسه لمجلس الشعب السوري، لكن المفاجأة كانت في إعلان شيخ الجماعة التبرؤ من هذا الترشيح ومن أفكاره «الليبرالية عن المرأة»، واعتباره لا يمثل الجماعة في الانتخابات ولا في أي مجال آخر. وعلى الرغم من التشكيك في صحة هذا البيان، كون صدوره تزامن مع مرض الشيخ، وكون إن الجماعة لم تعتد على إصدار مثل هذه البيانات، إلا أن هذا البيان كان مؤشراً لبوادر صراع داخل الجماعة بلغ ذروته في بداية الألفية الثانية. وكان آثار ما نسب إلى الشيخ بمباركته ترشيح كوليت خوري في الانتخابات بطلب من السلطات جدلاً كبيراً، ومع ذلك تمكن الدكتور محمد الحبش من الفوز معتمداً على لائحة مشتركة وشبكة علاقات نسجها مع تجار السوق.

صراع الوراثة بدا واضحاً، وخصوصاً بين الابناء للحد من النفوذ المتنامي للدكتور الحبش، ومع وفاة الشيخ كفتارو كان هذا الصراع قد اتخذ منحى أكثر وضوحاً، فقد أوصى الشيخ بأن يخلفه ولده صلاح، إلا أن أخاه محمود انشق عن الجماعة وانضم إليه صهره الشيخ الحبش في ظل اتهامات بالفساد والتصرف بأموال المؤسسات، وخلاف على الثروة التي خلفها الشيخ الكبير. وقد أدى هذا الخلاف إلى تدخل أجهزة السلطة والقضاء بحيث اعتقل محمود كفتارو لمدة أسبوعين وتم إغلاق المركز الإسلامي الذي

<http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=269347>

(12) انظر الموقع الإلكتروني الخاص بالدكتور محمد الحبش، موقع التجديد على الرابط:

<http://www.altajdeed.org>

يديره⁽¹³⁾ ودخلوا في خصومات مع وزارة الأوقاف وانتهى الأمر باعتقال صلاح كفتارو في 29 تموز (يوليو) 2009، وأقبل من منصبه في مؤسسات والده ليتم بذلك «اجتثاث» الوريث الموصى له من قبل والده الشيخ المؤسس للجماعة⁽¹⁴⁾.

وهكذا أصبحت الجماعة الكفتارية محصورة بمجموعة مؤسسات تعليمية لتلاميذ الشيخ من بقايا الصف الأول والثاني؛ يتصارعون على النفوذ فيما بينهم، في ما بدا نفوذ الجماعة يتآكل وتأثيرها يتراجع بين الأتباع ونجمها يتجه نحو الأفلو. وتوزعت الجماعة على قياداتها التقليدية التي حافظت على منهج الشيخ «التعامل الإيجابي مع الحكومة الوطنية»، والسعي إلى تسلم مناصب حكومية، في الوقت الذي حاول فيه الدكتور حبش التميز عن خط النظام والنأي بنفسه عن ممارساته خلال الحراك والاحتجاجات التي بدأت في العام 2011 طارحاً ما يعرف بالطريق الثالث.

العلماء بين المشاركة والمغالبة

لعب علماء سورية وقياداتها الدينية دوراً هاماً في صوغ الحياة السياسية، منذ استقلال الدولة السورية عن السلطنة العثمانية العام 1919. إلا أن التطورات اللاحقة وخصوصاً في ما يتعلق بالعملية السياسية الديمقراطية آنذاك، والتي سمحت بتعاظم دور الأحزاب، أدت إلى انكفاء هذا الدور المباشر ليتحول إلى حالة رمزية، في حين إن بعض القيادات الدينية اكتسبت قيمة مضاعفة بانخراطها في العمل الحزبي المباشر، فقد كانت كاريزمية الشيخ العطار والشيخ مصطفى السباعي بانخراطهما في الإخوان المسلمين مثلاً على هذا الأمر، في حين فضل عدد آخر من القيادات تجنب السياسة مقابل رموز أخرى انتهجت خطأً انحصار بالتصدي لما تراه مسيئاً للقضايا التي تتعلق بالدين والأخلاق وممارسة نهج يقدم العلماء فوق السياسة وباعتبارهم مرجعيات وأكبر من مجرد موظفين في الجهاز الديني الرسمي، مثل الشيخ حسن حبنكة الميداني والشيخ عبد الكريم الرفاعي وغيرهم.

(13) موقع أخبار الشرق (20 أيار/مايو 2009).

(14) وجهت إليه تهمة «اختلاس المال العام» و«مزاولة المهنة بدون رخصة» و«إقامة علاقات غير مشروعة مع هيئات خارجية». وأفرج عنه في 26 آب/أغسطس 2012 بعد إسقاط جميع التهم عنه. انظر بيان اللجنة السورية لحقوق الإنسان الصادر في 28 آب (أغسطس) 2012.

من الناحية التنظيمية لا يمكن الحديث عن جماعة متماسكة بالمعنى التقليدي للجماعة الديني؛ وإنما يمكن النظر إليها باعتبارها جماعة نخبة دينية بدون رأس، لكل عضو فيها أتباعه المستقلون وجميعهم متنافسون على جذب الأتباع عمودياً، أما تشكيلها أفقياً فالرابط بين أعضائها متعلق بـ «الدور الوظيفي» الذي تنهض به الجماعة الدينية في المجال العام، فعضوية الجماعة تبني على حجم الأتباع، والكاريزما الشخصية، ولهذا السبب فإن الخطباء البارزين يتمتعون بعضوية متميزة في هذه الجماعة/النخبة⁽¹⁵⁾. ومنذ العام 1963 حين أصبحت السلطة تحت حكم حزب البعث، ازداد حرص بعض القيادات الدينية على إقامة علاقات مصلحية مع السلطات الحكومية، بعضها لأسباب شخصية وبعضها الآخر يتعلق برؤية تدعو للاستفادة القصوى من الواقع الجديد لتثير الوعي الديني وحماية الأخلاق العامة، ومن هؤلاء كان أحمد كفتارو ومحمد الشامي ومحمد النبهان.

وبعد انفجار أحداث الثمانينيات بين السلطات الحكومية والإخوان المسلمين، والتي نتج عنها هجرة عدد كبير من العلماء والمشايخ أمثال مصطفى الزرقا ومحمد المبارك وعبد الله علوان وسليمان الأشقر وناصر الدين الألباني، بدأ يتسلل إلى الوعي العام إحساس بالقهر والاضطهاد الديني غذته طبيعة النظام وبعض الممارسات من جهة، وغياب الشفافية وتعطيل الحياة الديمقراطية من جهة أخرى.

واجه النظام السوري حالة الفراغ هذه، الناتجة عن هجرة العديد من كبار العلماء، والخوف من تسرب مشاعر الاضطهاد تجاه أهل السنة بإجراءات غصّ فيها النظر عن صعود بعض القيادات الدينية الشابة من جهة والتي بدأت في الظهور في المدن الكبرى، وعلى الخصوص في حلب ودمشق، فقد برز الداعية محمد راتب النابلسي في دمشق مستفيداً من إرث عائلته، مقدماً خطاباً تربوياً يستند إلى منهجية «الإعجاز العلمي» التي شاعت في أكثر من بلد عربي. أما في حلب فقد سطع نجم الشيخ أحمد حسون الصوفي النشأة في خطب الجمعة؛ ودرس الثلاثاء الأسبوعي في جامع الفرقان والتي تميزت بمنحى روحي صوفي، وقد نجح في تقديم نفسه إلى السلطات كحليف عضوي للنظام بعد خلاف

(15) عبد الرحمن الحاج: مرجع سابق، ص 26.

مزمّن مع مدير أوقاف حلب السابق صهيب الشامي، الذي ينتمي إلى عائلة دينية متحالفة مع النظام أيضاً، فعين خطيباً في جامع الروضة ومفتياً عن المدينة العام 2002، وعضواً في مجلس الإفتاء الأعلى في سورية. وقدر له أن يترشح ويفوز لدورتين متتاليتين في الانتخابات لمجلس الشعب (1991 - 1999) قبل أن يعين مفتياً عاماً للجمهورية السورية خلفاً للشيخ أحمد كفتارو العام 2004.

اللائق حينها أن بروز الشيخ حسون تزامن مع بروز قيادات عديدة في حلب، كان بينها الشيخ محمود عكام الذي تميزت أطروحاته ودروسه في المدرسة الخسروية، وجامع التوحيد بنزعة فكرية ومنحى اعتراضى واضح، وهو ما دفعه إلى ترشيح نفسه للانتخابات العام 1995، لكنه ما لبث أن انسحب منها ليفوز الشيخ حسون. في دمشق برزت مع عقد التسعينيات أيضاً وجوه شابة كان منها عبد اللطيف الفرفور ومعاذ الخطيب ومحمد حبش، ومع عودة أسامة الرفاعي عاد النشاط إلى «جماعة زيد»⁽¹⁶⁾ وجمعياتها الخيرية ونشاطاتها المسجدية في المجتمع الدمشقي. وفي الواقع بقي غالب القيادات الدينية التاريخية في الخارج، وعلى الرغم من عودة بعضهم، كالشيخ عبد الفتاح أبو غدة، فإنه لم يسمح لأحد من هؤلاء العائدين بممارسة أي دور باستثناء جماعة زيد والواقع أن ما أعطى المزيد من الفرص للقيادات الدينية الجديدة بالظهور في عهد الأسد الابن سياسته التي بدت للوهلة الأولى بأنها تمهد لتحول في نهج السلطة.

يمكن القول إن القيادات الدينية الجديدة، في إطار المتغيرات مع العهد الجديد، والوعود بالإصلاح أبدت ميلاً للتعاون والنشاط السياسي، سواء في صورة التحالف مع النظام أو بصورة مستقلة عنه، في المقابل لم يكن خافياً على أحد تلك الميول الرسمية لاستقطاب واحتواء هذه القيادات الدينية الصاعدة وإغراقها بالوعود والمناصب واستبدال كهول العهد السابق بها. وهذا ما عبر عنه حضور الرئيس الأسد

(16) ظهرت هذه الجماعة في الفترة ما بين 1919-1958، وكان الشيخ عبد الكريم الرفاعي أبرز من قادوا هذه الجماعة التي اعتمدت على الحلقات المسجدية التعليمية لتقديم معرفة تثقيفية وتربية أخلاقية إسلامية متينة، وقد وجدت انتشاراً واسعاً في دمشق = وامتدت عبر شبكة مساجد على الرغم من وفاة مؤسسها السنة 1973 إذ لم يجد أتباعه صعوبة في الاستمرار مع خليفته الشيخ أسامة، فقد سهل لهم ذلك النموذج الصوفي في نقل المشيخة، بالإضافة إلى الشخصية الكارزمية للشيخ أسامة. وقد تلقت الجماعة ضربة أمنية قاسية إثر محنة الثمانينات أدت إلى قتل وسجن العديد من أعضائها ولجوء قادتها إلى المملكة العربية السعودية. ولم يعد الشيخ أسامة الرفاعي إلى دمشق إلا في سياق رغبة الأسد الأب بتسهيل انتقال السلطة إلى ابنه ومحاولة التصالح مع هذه الشريحة.

لبعض المناسبات الدينية كخطبة عيد الفطر (2002) التي ألقاها الشيخ محمد عكام، والذي قيل حينها إنه وعد بوزارة الأوقاف وكذلك زيارة الرئيس الأسد لشيخ «جماعة زيد» في مسجد الرفاعي في دمشق والتي اعتبرت حدثاً غير مألوف في ذلك الحين، استهدف تقديم رسالة اطمئنان إلى المجتمع الدمشقي المحافظ. ترافق ذلك مع سعي العديد من هذه القيادات إلى تعزيز مكانتها في دوائر النظام، إلا أن إطلاق المعارضة السورية «إعلان دمشق للتغيير السلمي الديمقراطي» أطلق تياراً اعتراضياً خارج نطاق ومنطق التحالف مع السلطة.

والواقع إنه وسط كل هذه الأسماء والقيادات بقي الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي الأستاذ في كلية الشريعة بدمشق من الأسماء المتميزة طيلة عهدي الأب والابن في ظل حكم آل الأسد لسورية. وقد لمع نجمه بقوة في الثمانينيات للأسباب السابقة نفسها ذكرها، وأتيح له المجال واسعاً ليظهر في جميع المناسبات، وتم تخصيص برنامج أسبوعي له في التلفزيون السوري، مستفيداً من قدرات شخصية متميزة وقدرة على التأثير في المتلقي، فضلاً عن تمكنه من اللغة العربية أسلوباً وكتابةً وبلاغة. هذا فضلاً عن دروسه العلمية الأسبوعية في بعض مساجد دمشق، ومؤلفاته العديدة، التي تعالج مواضيع مختلفة برؤية معاصرة، الأمر الذي مكنه من بناء شعبية في أوساط المثقفين، زاد منها نفوذه الذائع الصيت مع النظام وعلاقته المباشرة مع الرئيس حافظ الأسد الذي منحه المزيد من حرية الحركة.

الشيخ البوطي من مواليد 1929 من أصول كردية تنتمي إلى جزيرة «بوخان» في تركيا؛ تأثر بوالده الشيخ ملا رمضان⁽¹⁷⁾ (1888-1990) الذي كان بدوره من كبار الصوفية النقشبندية. في هذه الأجواء نشأ الشيخ البوطي، وتلقى تعليمه في مدارس دمشق، ثم تابعها في الأزهر الشريف ليحصل منها على شهادة الدكتوراه من كلية الشريعة، وله أكثر من تسعين كتاباً تتناول مختلف القضايا الإسلامية، وهو يعتبر من كبار ممثلي الاتجاه الصوفي والأشعري في سورية. وهو يعتبر من الناحية الفقهية المدافع الأبرز عن هذا الاتجاه وخصماً عنيداً للدعوة السلفية ولحركة الإخوان المسلمين، وله كتاب في

(17) انظر ترجمة كاملة عن حياة الشيخ ملا رمضان في موقع نسيم الشام:

<http://www.naseemalsham.com/ar/Pages.php?page=tagm>

ذلك «اللامذهبية أكبر بدعة تهدد الشريعة الإسلامية» وآخر بعنوان «السلفية رحلة زمنية مباركة وليست مذهباً إسلامياً».

فإلى جانب أحمد كفتارو كان الدكتور البوطي الشخصية الأبرز التي عرفها الجمهور السوري؛ عبر ظهوره المتواصل ودروسه الأسبوعية في مسجد بني أمية ومسجد الإيمان والدرس التلفزيوني الأسبوعي (دراسات قرآنية)⁽¹⁸⁾. أسس البوطي خصامه مع الإسلام الحركي في كتابه «الجهاد» العام 1993 حين فرّق بين مفهوم «الدعوة»، ومن يسمّون بالإسلاميين أو الجماعات الإسلامية «فهؤلاء ليسوا أكثر من جماعات تسعى للوصول إلى الحكم والسلطة».

تركز كتابه على مناقشة المسائل الخلافية حول موضوع الجهاد وخصوصاً مع الإسلاميين عبر فيه عن موقفه حين قال: إنه «لا يجوز في ميزان الشريعة الإسلامية الخروج على إمام المسلمين ورئيسهم مهما ظهر منه الجور أو الفسوق». وهو في الكتاب يناقش مسألة الخروج على الحكام ويتخذ من الإسلاميين في الجزائر (جبهة الإنقاذ الإسلامية في الجزائر مثلاً) ليعتبر الخروج على الحاكم هو في حد ذاته خروج على مبادئ الإسلام وأحكامه الواضحة. وهو في تحليله يتبنى الرواية الرسمية الحكومية كاملة في سورية والجزائر على الرغم من أن أحداثها كانت نتائج انتخابات حرة، ولا يكفي بذلك بل يعتبر رؤيته هذه من «حقائق الإسلام» وهي تدخل في باب «الحرابة» التي يعتبر قمعها «واجباً على الحكام والفتات الشعبية معاً».

هذا النمط من الإنتاج الفقهي الذي قدمه البوطي، ينتمي إلى نتائج الخطاب السلطاني المؤسس على فكرة السمع والطاعة والتحذير من المعارضة والخروج على الحاكم خوفاً من «الفتنة»، وترديد «حاكم ظلوم خير من فتنة تدوم»، وهو ما تردده أيضاً المدرسة السلفية التقليدية التي يناصبها البوطي نفسه أشد العداوة. وهذا ما جعل البوطي متهماً بنظر الكثيرين بأنه أصبح من «فقهاء السلطان» نظراً للحظوة التي تمتع بها في عهدي آل الأسد.

(18) انظر سيرة حياة الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي في موقع نسيم الشام:

http://www.naseemalsham.com/ar/Pages.php?page=mufy&pg_id=1992

تميزت علاقة البوطي بالسلطة بأنها كانت على الدوام إيجابية، لذلك كان مفهوماً موقفه المعارض للتظاهرات الاحتجاجية في سوريا معتبراً تلك التظاهرات «أخطر أنواع المحرمات» متصدياً أكثر من مرة للشيخ القرضاوي، وهو في دفاعه عن السلطة لا يكف عن استحضار «نظرية المؤامرة» على الإسلام والأمة، وهي النظرية نفسها التي يستخدمها النظام ومنها تتناسل كل مواقفه وتصوراتهِ. لذلك يحرم الخروج على الحاكم مطلقاً بحجة المؤامرة الخارجية، ويحصر وظيفة المعارضة بمجرد «النصح» ويعطل كل «الحقوق»، بل ويذهب في كتابه «يغالطونك إذ يقولون» إلى وضع شروط لصيانة الدولة للحريات، وأهمها أن يتبين إنه ليس هناك وحي خارجي يقود المعارضة، فإن تبين ذلك يجب مصادرة الحريات.

لكنه لا يتحدث إطلاقاً عن الاستبداد والتفرد بالسلطة والقمع، وتأليه الحاكم والتوريث السياسي، والكيفيات الآتلة إلى توسيع أطر المشاركة الشعبية والديمقراطية، وحتى التحول من الدولة الأمنية إلى الدولة المدنية. بل إن ما يثير الدهشة في خطاب البوطي ذلك الإصرار العجيب على مساءلة الناس باعتبارهم وحدهم الذين يجب أن يتكيفوا مع ثوابت السلطة السياسية؛ وعدم الجرأة على مساءلة السلطة على أفعالها باعتبار ما يصدر عنها أوامر لا يمكن دفعها بل يجب تبريرها والاستسلام لها.

إن تعطل عقليته النقدية تجاه السلطة، وتحفزها الدائم نحو مساءلة الناس، تبرز بوضوح في جوابه على من سأله عن حكم من أجبر على توحيد غير الله وأكره على القول: إن ربه هو الرئيس. أجاب: «لماذا تسألني عن النتيجة ولا تسألني عن السبب؟ أليس السبب هو خروج هذا الشخص مع المسيرات إلى الشارع والتهاتف بإسقاط النظام وسبّ الرئيس والدعوة إلى رحيله؟»⁽¹⁹⁾ طبعاً يتجاهل البوطي هنا أن التظاهرات نفسها هي

(19) انظر نص الفتوى على الرابط التالي:

http://www.naseemalsham.com/ar/Pages.php?page=readFatwa&xpg_id=14658&back=89285

ونصها «لماذا تسألني عن النتيجة ولا تسألني عن سببها؟ ما سبب ملاحقة هذا الشخص وإجباره على النطق بكلمة الكفر التي تذكرها والتي زجتها بالكفر يقيناً وبالإجماع؟ أليس سبب ذلك خروج هذا الشخص مع المسيرات إلى الشارع والتهاتف بإسقاط النظام وسبّ رئيسه والدعوة إلى رحيله؟ لماذا لا تسألني عن هذا السبب وحكمه وموقف رسول الله من هذا العمل؟ ألا تعلم - والمفروض أنك تقرأ القرآن- أن الله نهى المسلمين على استنارة المشركين بسبب أصنامهم، ولم يتحدث عن سبب المشركين لله نتيجة لذلك؟ لماذا الإصرار على مخالفة أمر الله وأمر رسول الله، ثم التشدد بعد ذلك بالسؤال عن حكم الإسلام في حق النتيجة التي انبثقت عن هذه المخالفة؟.. استجيبوا لأمر رسول الله القائل في حق مثل هذه الفتنة (عليك بخاصة نفسك) ثم انظروا هل ستجدون من يلاحقكم إلى بيوتكم ويجبركم

نتيجة لسبب أيضاً، وبالتالي كان عليه وفق هذا المنطق أن يفكر فيه، تماماً كما لم فعل عندما حرّم الخروج بالتظاهرات دون أن يتحدث عن عمليات القمع والقتل التي يتعرض لها المتظاهرون.

مع ذلك وعلى الرغم من نجومية البوطي وصداقته المتينة مع النظام لم ينجُ من انتقادات التيار الأشعري الشافعي المتشدد؛ والمقرب من النظام السوري أيضاً، والمتمثل بجمعية المشاريع الخيرية الإسلامية (الأحباش) الذين شنوا عليه حملة عنيفة عارضين العديد من مقالاته الفاسدة على مستوى العقيدة، بل وصلت حملتهم إلى حد اعتباره «ممن اندلعت ألسنتهم بالباطل واندلعت أصواتهم بالضلال، يرمون السلع الرديئة بحجج واهية فاسدة...».

لقد ركز هذا التيار هجومه على البوطي متهماً إياه بالانحراف عن عقيدته الأشعرية الشافعية ومحاولة تشويهها من خلال شطحات تتبعوها له فيها كما يزعمون تصريح بالقبول بالحلول والتجسيم، وأخرى تؤيد المعتزلة في مسألة القدر، وقضية رفضه تكفير الكافر، والشك في نبوة الرسول وأنه لا يجوز الكبيرة بحقه، ومسألة اعتباره المنافقين مسلمين مع علمه بنفاقهم إلى جانب قضايا فقهية أخرى مثيرة للجدل⁽²⁰⁾.

في الواقع تمثل شخصية البوطي مثلاً نموذجياً للفقهاء السلطاني، الذي يسعى لانتزاع مرجعية معترف بها عند العامة، لكن هذه المرجعية بقيت بلا تكريس بعيداً عن المناصب الرسمية، وما كان لها أن تصل إلى ما وصلت إليه لولا «الرعاية الرسمية» التي أحيط بها، على الرغم مما يتمتع به من مؤهلات ومواصفات.

جمعية المشاريع الخيرية الإسلامية (الأحباش)

على الرغم من أن هذه الجماعة لا وجود لها في سوريا إلا أن العلاقة المميزة، وانطلاقهم في معقلهم الرئيسي في لبنان، تشير إلى رعاية وتحالف وثيق مع

على النطق بهذا الكفر؟»

(20) انظر نص الدراسة التي نشرها الأحباش في هذا الموضوع على الرابط التالي:

<http://alharary.com/vb/t1656.html>

النظام السوري، فمنذ العام 1983 تاريخ إعلان الجمعية الرسمي أعلنوا تبنيهم منهجاً فكرياً يختصره مرشدهم العام عبد الله الهري بأنهم لا يتبعون فكرة مستحدثة ولا منهجاً جديداً كحالة من يتبعون سيد قطب أو النبهاني أو محمد بن عبد الوهاب أو ابن تيمية، إنما «نحن أشعرية شافعية، أشعرية وماتريديّة من حيث العقيدة وهي عقيدة مئات الملايين من المسلمين، ومن حيث الأحكام العملية نحن شافعية. ولا نستحل اغتيال رجال الحكومات لأجل أنهم يحكمون بالقانون. نحن بريئون من هذه الفئة. أما مسألة بيان المكفريات في الألفاظ الكفرية فنحن لا نحمل مذهباً جديداً إنما اتبعنا في ذلك أئمة من المذاهب الأربعة»⁽²¹⁾. كذلك يتبع الأحباش الطريقة الرفاعية التي هي طريقة شيخهم ولهم كتب ومؤلفات دفاعاً عن الصوفية وخاصة في المسائل التي ينكرها الوهابيون كزيارة القبور والاحتفال بالمولد النبوي والضرب على الدف إلى آخره...

أسست الجمعية خطابها منذ البداية على خصام وتضاد مع السلفية الوهابية وأطروحة الإخوان المسلمين؛ بل إنهم كانوا ينفرون من السياسة بدايةً. وتميز سجالهم بالشدّة وهو ما أدى إلى تكفير وتكفير مضاد وخاصةً بينهم وبين السلفيين، كان أحد نتائجه اغتيال أحد كبار رموزهم في لبنان وهو الشيخ نزار الحلبي العام 1995⁽²²⁾.

شكل هذا الاغتيال ضربة قوية للأحباش في لبنان، ورغم كشف الجناة والإعدام السريع لبعضهم⁽²³⁾، إلا أنه جاء ليكبح نفوذاً متنامياً لهذه الجماعة في ظل رعاية أمنية سورية تشرف على أدق تفاصيل الملف اللبناني بعد اتفاق الطائف، فقد رشح الأحباش أحد أعضائهم إلى مجلس النواب اللبناني في العاصمة اللبنانية بيروت وحقق فوزاً مفاجئاً العام 1992، لكنه بعد هذه الحادثة فشل في الحفاظ على مقعده.

على مدى عقدين من الزمن بقي لافتاً ذلك الارتباط الوثيق بين الأحباش

(21) انظر موقع جمعية المشاريع على الانترنت

<http://www.projectsassociation.org/>

(22) للاطلاع على المزيد من أفكارهم ومواقفهم انظر كتاب: عبد الفني عماد: الحركات الإسلامية في لبنان، إشكالية الدين والسياسة في مجتمع متنوع، دار الطليعة، بيروت، طبعة أولى، 2006، ص 109-151.

(23) انظر لمزيد من التفصيل كتابنا: الحركات الإسلامية في لبنان... المرجع السابق، ص 129-132؛ أيضاً مجلة منار الهدى العدد 36 (تشرين الأول) 1995؛ وجريدة الديار 13/11/1998؛ وخطبة الشيخ سعيد شعبان وإدائته لإعدام الشبان المتهمين بالاغتيال في جريدة الديار (1997/4/1) معتبراً ذلك الإعدام خدمة للمشروع الأميركي الصهيوني.

والنظام السوري؛ وكان لافتاً الدعم الكبير والخدمات والتغطيات التي قدمت لهم في مرحلة ما بعد الطائف. في المقابل لم يفوّت الأحياش مناسبة وطنية أو قومية إلا وأقاموا لها الاحتفالات الضخمة محاطين بتمثيل رسمي، وتغطية إعلامية مرفقة بشعارات عن عمق العلاقة بين لبنان وسوريا. استفاد الأحياش من هذه الرعاية المتميزة فتضخم نفوذهم وتوسعت سيطرتهم وامتدت إلى المساجد التي هيمنوا على بعضها خلافاً لرأي دار الفتوى والأوقاف، وقد تم ذلك أحياناً بعد عراق ومشاجرات كما حصل في مسجد الجامعة العربية (الحوري) في العام 1994 ومسجد المصيطبة وغيرها من المساجد في الكثير من المناطق اللبنانية.

لا شك أن جمعية المشاريع استطاعت خلال فترة وجيزة أن تكون قاعدة شعبية هامة في المدن الأساسية؛ وخصوصاً في العاصمة بيروت وطرابلس، في ظل الوجود السوري في لبنان وهي اكتسبت صفة العالمية لأن وجودها يمتد ليشمل أكثر من أربعين دولة في القارات الخمس، حسب مصادرهم الإعلامية. وترافق مع توسع الجمعية إنشاء مؤسسات ومراكز ونوادٍ وشبكة مدارس بلغ عددها خمسة مدارس ثلاثة منها في طرابلس وواحدة في بعلبك وفرق إنشاد دينية ضخمة، كان لها الدور الفعال في ترسيخ وجودها الانتخابي والسياسي في بعض المناطق. إلا إن اغتيال الشيخ نزار الحلبي ترك آثاراً سلبية على الجمعية فيما بعد، ظهرت في انحسار دورها السياسي والشعبي واقتصره على إقامة الاحتفالات الوطنية والقومية والدينية المؤيدة لسوريا⁽²⁴⁾، وعدم نجاحها في بلورة فكر وبرنامج سياسي متكامل يمكن تتبعه في أدياتهم المعلنة.

تضررت الجمعية كثيراً بعد جريمة اغتيال الحريري وخروج السوريين من لبنان، واتهام بعض أعضاء الجمعية في المشاركة بعملية الاغتيال، فقد شرح تقرير لجنة التحقيق الدولية الدور المشبوه لأحد أعضائها (أحمد عبد العال) وسلسلة الاتصالات الهاتفية قبل الانفجار بدقائق معدودة وبعده⁽²⁵⁾، وقد أدى ذلك إلى انكفاء سياسي كبير

(24) انظر ردود الفعل السياسية على حادثة الاغتيال والتي تعتبر ذات دلالة هامة، وهي حادثة الاغتيال السياسي الأول بعد الطائف، والتي اتهم بتنفيذها تطبيع عصبة الأنصار بقيادة عبد الكريم السعدي الملقب بـ «أبو محجن» انظر صحف السفير والنهار والحياة يومي 1 و2/9/1995 وما تلاها من محاكمات وإعدامات بحق بعض المتهمين بالاغتيال، وأهمها ما ورد على لسان الشيخ سعيد شعبان باعتبار الإعدام السريع لهؤلاء الشبان خدمة للمشروع الأميركي الصهيوني (جريدة الديار اللبنانية في 1/4/1997)

(25) جريدة المستقبل اللبنانية في 27/10/2005.

للجمعية التي بقيت على مواقفها السياسية وضمن إطار تحالف 8 آذار، لكن دون أن تقوم بتفعيل مواقفها في البيئة السنية التي أصبحت معادية لتوجهاتها، بل أصبحت محط تشكيك وشكوك، لذلك اكتفت بدور اجتماعي وتنظيمي وتربوي بعيداً عن السياسة.

جماعة القبيسيات

شكلت دراسة هذه الجماعة إشكالية كبيرة لدى الباحثين، نظراً للغموض الكثيف الذي يحيط بها من جهة، وللدعوى المختلفة التي أثّرت حولها والتي اختلطت فيها الوقائع الموضوعية بالتقييمات الذاتية للباحثين والدارسين. فهذه الجماعة هي حركة إسلامية نسوية فريدة في العالم انتشرت إلى خارج الحدود السورية مثل الخليج والأردن ولبنان واليمن وأميركا وأستراليا وغير ذلك.

بدأت الشيخة الكبيرة منيرة القبيسي (مواليد 1933) تأسيس جماعتها عندما كانت الحركة الإسلامية في أوج نشاطها في الستينيات، فقد كانت في بدايتها قريبة من أفكار الشيخ أحمد كفتارو إلا أن شخصيتها المتميزة وقدرتها على التأثير في المجتمع النسائي الدمشقي دفعها إلى الانخراط في العمل الدعوي الإسلامي على طريقتها.

ليس واضحاً الكيفية التي استطاعت فيها هذه الجماعة اختراق مجتمع العائلات الدمشقية والحلبيّة العريقة؛ واستقطاب تأييدها وتجنيد العديّات منهن لتصل إلى الأوساط الغنية وذات النفوذ. نجحت هذه الجماعة الدينية النسوية في مجتمع ذكوري في تعويض محدودية حريتها بالالتجاء إلى قداسة الدعوة؛ وتشجيع الأهل على تدين بناتهم انسجاماً مع ثقافة متدينة محافظة بطبيعتها من جهة، وعلى نجاحها ببناء شبكة من المدارس أثبتت نجاحها واستخدامها للتقنيات الحديثة في التربية والتعليم والاستثمار في مجال التعليم النظامي، هذا فضلاً عن الدروس المنزلية التي اشتهرت بها الجماعة في نشر دعوتها.

وتقدر بعض الإحصاءات وجود 40 مدرسة تابعة للجماعة في دمشق⁽²⁶⁾،

(26) حسب تقديرات 2006. وفي الواقع تتفاوت الأرقام حول عدد المدارس والتأثير الفعلي المباشر وغير المباشر، فبعضها يتحدث عن 40 مدرسة في حين يعتبر البعض الآخر هذا الرقم مبالغ به. انظر مقابلة الشيخ صلاح كفتارو على الرابط

والبعض الآخر يصل إلى القول: إن الجماعة تشرف على 40 بالمائة من مدارس دمشق الخاصة، تدور في فلكها أكثر من 75 ألف امرأة ومربية لآلاف الأسر، وغالباً ما تسمى المدرسة بالدار مثل (دار الفرح التي تديرها منى قويدر في المهاجرين)، ودار النعيم ومدرستي عمر بن الخطاب والبشائر في المزة وعمر بن عبد العزيز في الهامة ودوحة المجد في المالكي والبوادر في كفرسوسة، وهي تتبع منهاج وزارة التربية، لكنها تضيف دروس الدين فضلاً عن الأنشطة والمسابقات المصاحبة. ويتميز لباس «الآنسات» كما يعرفن في سوريا بالمعطف الكحلي الغامق والحجاب الأزرق مع الجوارب السميكة والحذاء الأسود من دون كعب. غطاء الوجه ليس إجبارياً. مع التشديد على عدم تشذيب الحاجب وعدم التبرج عبر وضع المساحيق على الوجه. ويقال إن مرتبة «القبسية» تعرف من لون منديلها، فكلما اقترب اللون من الأسود يكون هذا مؤشراً على اقترابها من الأنسة. وتشير التقديرات إلى أن «حلقات» الجماعة تضم نحو 25 ألف امرأة وفتاة في دمشق وضواحيها. وهذا يجعلها من كبرى الجماعات الإسلامية.

اعتمدت الجماعة أنشطة ومنظمات خيرية لمساعدة الفقراء، وأقامت مخيمات صيفية، ولها ما يشبه الصالات المسرحية والفنية، ولا تجد حرجاً في الفنون الغنائية والتمثيلية المحافظة التي تستثمر من قبلها للتوعية الدينية والأخلاقية ونشر الدين، كما إن منتجاتها الفنية تحقق انتشاراً كما حفلاتها الاجتماعية في المناسبات والتي يشارك فيها فئات ميسورة يذهب ريعها إلى المؤسسات الخيرية التي تشرف عليها. هذا فضلاً عن إشرافها وامتلاكها لمستشفى «سلامة» في دمشق توفر من خلاله بعض الخدمات الصحية إضافة إلى مكتبة السلام في البرامكة المتخصصة بكتب الجماعة.

وللقبسيات منهج موحد في الدراسة وهو مجموعة معينة من المواد تدرس من كتب غالبها من تأليف الجماعة نفسها. فكتاب العقيدة المعتمد هو: «عقيدة التوحيد من الكتاب والسنة» تأليف سعاد ميبر. ولهنَّ عناية كبيرة بحفظ القرآن وتلاوته. وهناك كتاب «مختصر الجامع في السيرة النبوية» لسميرة زايد، وهناك أربع كتب لفقه العبادات على المذاهب الفقهية الأربعة معتمدة لديهم⁽²⁷⁾، ففي دمشق ولبنان يدرسنَّ الفقه الشافعي،

<http://www.manaar.com/vb/showthread.php?t=14520>

(27) وهم على التوالي: فقه العبادات على المذهب الشافعي تأليف درية العبيطة، وفقه العبادات على المذهب الحنفي تأليف نجاح الحلبي،

وفي حلب يدرسنُ الفقه الحنفي، وفي السعودية والخليج الفقه الحنبلي. وبعضهن يدرسن المذاهب الأربعة كلها، فالجماعة غير متمسكة بمذهب أو متعصبة لمذهب معين من مذاهب أهل السنة، لكنها تطلب من أعضائها الإمام بمذهب واحد على الأقل في فقه العبادات⁽²⁸⁾.

خلال ما يزيد عن أربعة عقود عملت جماعة القبيسيات في الدعوة الدينية بالسر والعلن؛ تبعاً للظروف الأمنية والسياسية في البلاد، وتنقلت بين الدروس في المنازل والبيوت والمساجد والمدارس، ولم يسجل عليهن خلال هذه المدة أية مشاركة علنية في الحديث السياسي، وسواء في تأييد النظام أو رفضه، بالرغم من إنها أظهرت له الولاء مراراً لتحاويه، وبذلك استطاعت الجماعة تجاوز محنة الثمانينات⁽²⁹⁾. وقد بقي تنظيم القبيسيات خارج الضوء طوال عقود وباستثناء الهجوم الذي شنته عليه جماعة السلفية في الكويت والأردن وجماعة الأحباش في لبنان⁽³⁰⁾، فإنه لم يظهر اهتمام فعلي بتنظيم الأخوات القبيسيات إلا بعد تولي بشار الأسد منصب الرئاسة خلفاً لوالده مع ازدياد انتشارهن وتأثيرهن في المجتمع السوري. وقد ظهر ذلك الاهتمام على شكل مسلسلات كوميدية ودرامية ناقدة على شاشات التلفزة المحلية السورية والقنوات الفضائية العربية.

لم يكن صدفة خروج تلك المسلسلات التي بدأت مع مسلسل «بقعة ضوء»، الذي يظهر في إحدى حلقاته الأخوات القبيسيات في نمطية شديدة المحافظة والسداجة مركزاً على اختراقهن لطبقة الأثرياء واستغلالهن العمل الدعوي لتحقيق مصالح استثمارية لقيادة الجماعة. تلاه العام 2004 مسلسل «عصي الدمع» ناقداً لأفكار هذه الجماعة باعتبارها أفكاراً وتصورات منغلقة وجامدة ومتعارضة مع الحداثة، ثم مسلسل «الباقون»، وفيه ثلاث حلقات بعنوان البرزخ يتعرض لأسلوب الدعوة والاستقطاب والمفاهيم التي

وقفه العبادات على المذهب الحنبلي تأليف سعاد زرزور، وقفه العبادات على المذهب المالكي تأليف كوكب عبيد.

(28) في الصف الأول أيضاً هناك أنسات قيادات من أبناء الشريعة الغنية في دمشق وبينهن: خير جحا ومنى فويدر ودلال الشيشكلي (توفيت قبل سنوات)، ونهيدة طرقي، وفائزة طباع وفاطمة غباز ونبييلة الكزبري ورجاء تسابحي والدكتورة سميرة الزايد التي اشتهرت بتأليف «الجامع في السيرة النبوية» من عشرة أجزاء.

(29) عبد الرحمن الحاج: المرجع السابق، ص18.

(30) انظر: أسامة السيد: التنظيم النسائي السري الخطير، دار المشارع، بيروت، ط1، 2003. ووصل الأمر إلى أن التيار السلفي الجامي استصدر فتوى بتكفير القبيسيات بتاريخ (1414/5/18هـ) من هيئة كبار العلماء ناسباً إليها مجموعة من المفاهيم والممارسات المبالغ فيها، على الرغم من إن الفتوى جاءت بالعموم ولم تسمي الجماعة بالاسم إلا أنها وظفت لإدانتها.

تشرها الجماعة.

يبقى أخيراً مسلسل «ما ملكت أيمانكم» الذي عرض في آب (أغسطس) 2010 للمخرج نفسه (نجدت أنزور)، الذي دخل على خط التحليل النفسي والتناقضات الإنسانية في شخصيات تنتمي إلى جماعة القبيسيات، قال: إنها مستمدة من مذكرات حقيقية، وقد أثار هذا المسلسل موجة استياء واسعة لدى المتدينين والمحافظين، حتى إن الشيخ البوطي نفسه انتقد طريقة تعاطي المسلسل مع الموضوع ودافع عن القبيسيات بشدة في خطبة الجمعة معتبراً هذه الجماعة «نخبة اجتباها الله عز وجل في شامنا ينبغي أن نرفع الرأس بها عالياً وما ينبغي أن نحاول أن نجثث الثقة بالناس الذين اجتباهم الله عز وجل في بلدنا...»⁽³¹⁾.

خطبة ومن ثم شهادة طويلة للبوطي على موقع «نسيم الشام»، رداً على ما أثاره ذلك المسلسل من ردود أفعال، ليقول: إن الأخوات القبيسيات يمثلن الإسلام الحضاري والوطني والواعي البعيد عن الغلو المترفع عن النفاق. عرفت سورية مدى أنشطتهن الثقافية المتنوعة المتسامية عن الترافعات السياسية والحزبية وتياراتها، وقد نشأ بفضل جهودهن التربوية لاجيل واحد بل أجيال من الفتيات، يتمتعن بالعمق الثقافي والسمو الأخلاقي والاعتزاز بالقيم والانتماء الوطني والوسطية الدينية السليمة. وهذه الحركة تفيض بالمتففات صاحبات الاختصاص المتنوع: طبيبات، مهندسات، جامعيات، متخصصات بالعربية والعلوم الشرعية وما يبعث على الاعتزاز إن فيهن اليوم كثيرات يحفظن عن ظهر قلب صحيح الإمام البخاري والإمام مسلم كله سندا وامتناً، وهي ميزة فريدة لم تتحقق في الأزمنة كلها إلا في هذا العصر ولم يحتضنها من الأمكنة إلا سورية»⁽³²⁾.

ولا يفوت البوطي في دفاعه عن القبيسيات أن يستحضر الرئيس حافظ الأسد، ليستقوي به قائلاً: إن الرئيس كان طلب منه إبلاغ الأنسة والأخوات الدعاء له ولسورية،

(31) خطبة الشيخ البوطي في الوطن أونلاين (2010/9/14).

<http://www.alwatanonline.com/index.html>

(32) موقع نسيم الشام، المرجع السابق.

وذلك رداً على هدية الكتاب الفريد «الجامع في السيرة»، كان قد حمله إليه من تأليف سميرة الزايد إحدى أبرز قيادات الجماعة.

كانت المسلسلات التلفزيونية مؤشراً على اهتمام بعض الأجهزة الأمنية بهذه الجماعة؛ وقد ترافق ذلك مع حملة صحافية وتحقيقات جديدة من نوعها، فكتب في 2006 إبراهيم حميدي في صحيفة «الحياة» تقريراً مطولاً بعنوان «يرتدين الحجاب الكحلي ويملكن شبكة تدريس ونفوذ واسعة: الأنسات القبيسيات»⁽³³⁾. وكتب شعبان عبود في صحيفة «النهار» تقريراً صحافياً بعنوان: «رجال العمام أكثر حضوراً من المثقفين»⁽³⁴⁾. ركز فيه على الاهتمام الأمني بظاهرة القبيسيات، كما ظهرت تحقيقات في الصحافة العالمية مثل «نيوزويك» و«نيويورك تايمز» وغيرها، وظهرت مبالغات من بعض الكتاب حول هذه الجماعة وأهدافها «إنهن تنظم يهدف إلى إقامة إمارة إسلامية على غرار دولة طالبان»⁽³⁵⁾.

مع ذلك لم يثبت أي عمل سياسي للجماعة، بل ربما يمكن القول إن هذه الحملة وظفت للضغط على الجماعة لحملها على اتخاذ مواقف سياسية معلنة لصالح النظام، لكن مؤدّى ذلك كله كان «الصمت» والثبات، حيث لم يثبت أن الجماعة تشكل أي خطر سياسي أو أمني بل على العكس، فهي تؤدي دوراً هاماً في الخدمات الاجتماعية والالتزام الأخلاقي ونشر التدين التبدي غير المسيس بما يقلل من حركات الاحتجاج الاجتماعي ضد النظام، إلى درجة أقتعت بالنظام بالسماح لهن رسمياً بالعمل الدعوي بالمساجد والنشاط العلني في بعض المجالات.

مع انتشار تلميذات منيرة القبيسي أصبحت زيارة الشام عندهن أشبه بالواجب، أو الحلم حتى أطلقت بعضهن اسم «رحلة كعبة المعاني» على رحلة الشام، في حين إن التوجه إلى مكة المكرمة لأداء الحج والعمرة هي رحلة «كعبة المباني». وللقبيسيات عند

(33) جريدة الحياة في 3/5/2006.

(34) صحيفة النهار 27 أيار/مايو 2004.

(35) من نص لمقابلة مع محمد شعروور أجرته منى سركييس تحت عنوان مثير «جمعيات نسائية باطنية في سوريا باسم الإسلام:

القبيسيات يعملن لاختراق مراكز القرار، انظر موقع قنطرة:

مقابلة الأنسة أو الشيخة الكبرى دعاء خاص هو: «اللهم اجمعنا على أمها وأجمعنا على أمها». على الرغم من أن رؤية شخصية الشيخة قليلاً ما تتم، فاحتجابها يزيد من هيبتها ويمنح بالوقت نفسه فرصة الظهور والبروز لقيادات الصف الأول في الجماعة، الأمر الذي قد يسهل انتقال الخلافة إلى إحداهن، خصوصاً وأن التركيبة الصوفية للجماعة ليست من النوع المتين، فهي جماعة تخلط ما بين نمط تربوي صوفي وسلوك تربوي مؤسساتي دينوي الأمر الذي لا يوفر ضماناً أكيدة لانتقال سلس للخلافة دون انشاقات عادةً ما تصاب بها الحركات الدينية⁽³⁶⁾.

اللافت إن الأخوات القبيسيات، كجماعة نسوية، تمثل ظاهرة هي الأولى من نوعها في العالم الإسلامي، فهي فضلاً عن كونها لا تضم سوى الإناث وتنتشر أفقياً في حلقات تعتمد بيئة منزلية بحكم نسويتها في الغالب، إلا أنها لم تنتج خطاباً نسوياً يعنى بحقوق المرأة، بل اقتربت إلى النمط الصوفي في بعض السلوكيات وأشكال الأذكار والأدعية تأثراً بالطريقة النقشبندية⁽³⁷⁾. وعلى الرغم من ظاهرة العزوف عن الزواج في قيادات الأخوات القبيسيات، إلا أن ذلك لا يمثل نهجاً عاماً على الإطلاق، إذ تحرص الجماعة على تزويج الفتيات وتوجيههن نحو استكمال الدراسة ونيل الشهادات العالية في الفروع التعليمية المختلفة، لدرجة إن الكثير منهن يتمتعن بمستويات علمية وشهادات متخصصة عليا، فضلاً عن درجة من الانفتاح الديني تبلغ ذروتها في دمشق ثم في بيروت والكويت، لكنها كلما ابتعدت عن المركز انخفض المستوى التعليمي ودرجة الانفتاح ومستوى النشاط.

في لبنان تزعمت الجماعة في البداية أميرة جبريل⁽³⁸⁾، لكنها أخلت الساحة لسحر حلبي، فقد أصبح في لبنان يعرفن بالسحريات، وافتتحت مدرستين كبيرتين باسم البيادر في بيروت وعرمون، في الأردن يعرفن باسم «الطبايعات» نسبةً إلى شيختهن

(36) عبد الرحمن الحاج: المرجع السابق، ص 43. وفي الواقع يثار الكثير من الكلام غير المؤكد عن العلاقة الصارمة والطاعة العمياء والانصياع التام لأوامر الشيخة ولو على حساب العلاقات الزوجية والعائلية، فغادت تقبيل يد التلميذة لشيختها والجلوس منحنية أمامها وغيرها من الدعاوى الغير مؤكدة يعتبرها البعض مبالغ بها ومن باب التشنيع على الجماعة.

(37) يؤكد صلاح الدين كفتارو إن الداعية منيرة القبيسي «تربت في كنف الشيخ أحمد كفتارو في بداية حياتها الدعوية ما ترك الأثر العمود الذي طالما دعا إليه الشيخ...» في رده على تحقيق ابراهيم حميدي، الحياة (2006/5/28).

(38) وهي شقيقة أحمد جبريل الأمين العام للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين - القيادة العامة، وهو التنظيم الفلسطيني اليساري المعروف بتحالفه الوثيق مع سوريا.

فادية الطباع، التي تملك وتدير مدارس بارزة في العاصمة عمان (مدارس الدر المنثور)، إضافةً إلى مدرسة الخمائل. أما في الكويت فقد أسست فيها أميرة جبريل جمعية بيادر السلام العام 1981 فمن خلالها تشرف على عدد من المؤسسات التربوية (مدرسة القطوف وحضانة السلام وحضانة دار الفرح)، وترأست مجلس إدارة الجمعية دلال عبد الله عثمان. وقد جاء إنشاء الجمعية نتيجة جهود كبيرة بذلها يوسف سيد هاشم الرفاعي المرجع الصوفي الكويتي المعروف.

ومن غير المعروف التركيب التنظيمي للحلقات، لكن ما عرف عن نظام جمعية بيادر السلام في الكويت يشير إلى ثلاث فئات (النوادر - البشائر - البيادر) تقسم فيها القبيسيات على أساس الأعمار، يسود فيها بين البنات والمريية علاقة تشبه علاقة المريد بالشيخ تستهدف الأخذ بيدهن إلى طريق الله، فهم يقولون: «لا علم ولا وصول إلى الله من مريية» ويجب أن يتم ذلك بدون حرج «بين إخواني أكسر ميزاني». والواقع إن الجماعة لا تملك أفكاراً وتصورات دينية تجديدية، إنها أقرب إلى الجماعات التبليغية والصوفية تدعو إلى الالتزام الديني من خلال منظومة إحيائية وأخلاقية دعوية مبسطة، وهو ما منحها هذا الزخم في الانتشار، وهو ما يفسر أيضاً ذلك الاهتمام بالداعية المعروف عمرو خالد الذي تصفه القبيسيات بمجدد الدين.

كذلك فإن تجنب الجماعة الدخول في سجلات مع أي جهة، وحرصها على العلاقة الجيدة مع الجميع، ربما يكون أحد أسباب نجاح أسلوبها. والمتتبع لهذه الجماعة لن يجد موقفاً واحداً تلميحاً أو تصريحاً يتعلق بما يجري اليوم على أرض سوريا صادراً عن هذه الجماعة، رغم الغبار الكثيف الذي يشاع حول حقيقة موقفها.

الحراك الثوري الذي تشهده سوريا اليوم يعيد صياغة المشهد الإسلامي برمته؛ وعلى إيقاعات فيها الكثير من المفاجآت والمتغيرات الواعدة.